الوعـــــدة في المجتمع الجزائري

بين مقاومة الأنصار ومهاجمة الخصوم

أ.بن أحمد أحمد ـ جامعة تلمسان

ملخص الدراسة:

تشمل هذه الدراسة على محاولة تحديد مفهوم طقس الوعدة وعلاقتـه بالممارسـة الشعبية كاحتفال طقسي مكرس لتكريم الأولياء. ويكتسي أهمية بالغـة في التـراث الـشعبي الجزائري مما جعله يشكل نوعا من التوافق بين الطقوس الدينية والبدعية في نظر العامة. وقـد تجاذبه قطبان متناقضان: ضوابط الدين الرسمي التي اعتبرته نوع من الشرك والوثنية والممارسة الشعبية التي اعتقدته غير منتهك للمعتقد الديني. وقد صاحب الطابع الوثني مختلف الاحتفالات الدينية لأجيال المتعاقبة بأشكال مختلفة، وظهر من جديد من خلال عبـادة الأوليـاء وتقـديم القرابين واعتبارهم وسطاء مع الله من طرف التدين الشعبي.

ورغم وجود هذه الخاصية، فإن العلاقة بين الدين الرسمي وطقس الوعدة ظلت وثيقة بفضل الدول الذي قام به هذا الأخير لصيانة وحماية مقومات الشخصية الوطنية وتدعيم المؤسسات الدينية ونشر الثقافة المحلية المتميزة عن ثقافة الاستعمار الفرنسي.

الوعدة كمفهوم شبه ديني:

الوعدة طقس من الطقوس الشعبية الذي يضرب بجذوره في أعماق التاريخ الجزائري. وقد اصطبغ بأشكال مختلفة عبر مختلف مراحل التاريخ. فعرفه قدماء الجزائر قبل ظهور الديانات التوحيدية، وتأثره بعادات وتقاليد من تواجد محتلا للبلاد كالقرطاجيين والفينيقيين والرومان وغيرهم من الشعوب ليكتمل هذا التأثر بانتشار الدين المسيحي الذي خضع له البعض ومن بعده

الدين الإسلامي وما جلبه من معتقدات وما حمله الفاتحون المسلمون وما عرفوه من عادات قديمة في جاهليتهم وما اكتسبوه من رواسب الثقافات الأخرى التي انصهرت في بوتقة المجتمع الإسلامي، وبقيت حاملة لبقايا وثنية لحضارات عديدة (هندية، فارسية، وغيرها).

لقد تأثر السكان المحليون القدماء بهذه الديانات المختلفة، ومع ذلك فقد حافظوا على عقائدهم الأولى و لم يتخلصوا من بعض الرواسب الوثنية القديمة التي علقت بمعتقداتهم. وتجلى ذلك في العديد من عاداتهم التي لا يزالون متمسكين بها. وقد برزت هذه الأخيرة من دوامة النسيان التي وضعها فيها الجحود البشري وانبعثت من الأنقاض لتسيطر من جديد على الإنسان الذي اعتقد أنه تحرر منها.

إن المحافظة على هذه المعتقدات والطقوس المرتبطة بها يندرج ضمن المحافظة على الذاكرة الشعبية بما تحتويه من عادات وتقاليد، ولاسيما ما تعلق بالمناسبات الاحتفالية مما يظهر تمسك الناس بطقوس ذات طابع وثني مورست وكأنها نابعة من الدين الإسلامي، إذ لا يتم التفريق بين الطقس الديني وشبه الديني مما يسمح بتعايش الطقسين في المخيال الشعبي.

لقد اتفق كثير من الباحثين الذين اهتموا بموضوع عبادة الأولياء (أ. برمنغهام، جاك بيرك، هنري لوت...الخ) على أنها بقايا وثنية برزت من جديد عن طريق المرابطين[1] كما أن احتفالاتها تبعا لذلك تأخذ طابعا وثنيا. أما الفقهاء فيؤكدون على أن النذر لغير الله يعد شركا به وعلى هذا الأساس يتوافق الطرفان حسبما يقدمه كل طرف من تبريرات على أنه لا يمكن إنكار أن كثيرا من الطقوس التي تقام في الاحتفالات بالأولياء إنما تنبع في أصلها وتمتد في جذورها إلى أصول وثنية احتضنها التدين الشعبي وأقر بقدسيتها وارتباطها وتطابقها مع الدين الإسلامي.

لقد نبع هذا الوضع بدوره عن الصراع المرير بين أصحاب الحقيقة وأصحاب الشريعة أو بين الطرقية وما يتبعهم من عامة وعلماء الدين وما يشكلونه من خاصة. واختلفت نظرتهم إلى هذا الطقس حيث اعتبره الأولون لا يتعارض مع الدين بينما رفضه الأخيرون على اعتباره يشكل انحرافا عن الدين الإسلامي.

وإذا كان الدين الرسمي يحدد شروطا واضحة لأداء الممارسات والطقوس الدينية ويضبطها ضبطا دقيقا. فإن الممارسة الشعبية قد أخلت بهذه الشروط. ففي حين يشدد الدين على أن الأضحية لا تقدم إلا لله سبحانه وتعالى وإلا اعتبرت شركا ووثنية تعتبرها الممارسة الشعبية طقسا دينيا حينما تقدمها لغير الله في حين أنها من الطقوس التي يعدها الدين انحرافا عن تعاليمه. وفي هذا الإطار تعد الشعوذة والسحر وعبادة الأولياء من الطقوس البدعية. وتعتبر الاحتفالات التي تتم بالقرب من أضرحة الأولياء وتقدم خلالها القرابيين من الطقوس التي يحرمها الدين الرسمي غير أنها تقترب من الطقوس الدينية في نظر الممارسة الشعبية من حيث ما توفره من استقرار نفسي لدى الأفراد وما تستجب له من مطالب لدى أفراد الجماعات التي تقوم بها.

إن هذا الطرح يقودنا إلى بلورة الإشكالية التالية:

ما هي أسباب استمرار الوثنية في الوعدة رغم معارضة الدين الذي يعتنقه ممارسوا الطقس؟

لمعرفة الإجابة عن هذه الإشكالية، يجد بنا أن نتتبع الظاهرة المدروسة عبر مسارها التاريخي منذ نشأتها إلى الوقت الحالي. وهذا باستخدام المنهج التاريخي الذي يكفل اكتشاف الأسباب والعوامل المؤثرة في الظاهرة وبين أشكال التغيير الذي أصابها عبر مسيرتها التاريخية.

فالطقس ليس وليد حقبة تاريخية قريبة بل يضرب بأعماقه في جذور التاريخ. وقد ظهر بشكل مغاير مع الظروف التي وفرها وجود الطرق الصوفية وعبادة الأولياء واستمر إلى وقتنا الحالي على الرغم من أن الدين الإسلامي كان أقوى الأديان الذي حاربه واعتبره شركا ومع ذلك فقد استمر مدعما من قبل الممارسة والمعتقدات ولا زال يقام كل سنة في مختلف مناطق البلاد.

الوعدة والتدين الشعبي:

تشتق كلمة وعدة من فعل وعد، أي تعهد بشيء ما، أخذ على عاتقه تطبيق شيء ما، وهي بمعنى النذر، أي أن ينذر الرجل على نفسه يوما أو ذبح شاة إذا تحقق له شيء ما، أو أن يأخذ المؤمن على عاتقه أمام الخالق تنفيذ وعدة إذا تحققت إحدى أمنياته. فقد يتعهد إطعام عدد من المحتاجين إذا وضعت زوجته ولدا، فإذا تم له ما أراد يكون لازما عليه احترام تعهده تحت عاقبة الكفارة(2).

والنذر، مصدر نذر الشيء ينذره، ومعناه إيجاب الشيء على النفس مطلقا وقيل بشرط وكذا أن توجب على نفسك مما ليس بواجب لحدوث ما، ونذر على نفسه، ونذر ماله نذر لله سبحانه وتعالى كذا، أو النذر ما كان وعدا على شرط فعلي أن شفى الله مريضي كذا نذرا.

والنذر في اصطلاح الفقهاء التزام مكلف قربة، وقيل ما يوجبه المسلم على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما(3) وقد قال الرسول صلى لله عليه وسلم: " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه" و على هذا فإن النذر إذا كان معصية من المعاصي أو عملا من أعمال المشركين التي تنافي الإسلام، فإنه يعتبر حراما ولا يحل الوفاء(4).

إن النذر المشروع لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى، وأن المقبول منه ما لم يكن معلقا على حصول غرض دنيوي، فإذا كان النذر لمخلوق من ولي أو شيخ صالح فهو شرك بالله في هذه العبادة يحرم الإقدام عليه والوفاء به لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله"[5].

وفي هذا الشأن يقول الصناعي في " سبل السلام ": " وأما النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد، والأموات فلا كلام في تحريمها، لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع ويضر، ويجلب الخير ويدفع الشر، ويعافي الأليم ويشافي السقيم. وهذا هو الذي كان يفعله عباد الأصنام بعينه، فيحرم كما يحرم النذر على الوثن. ويجب النهي عنه وإبانة أنه من أعظم المحرمات الذي كان يفعله عبدة الأصنام، لكن طال الأمد، حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا. وصارت تعقد اللواءات لقباض النذور على الأموات، ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات، وينحر في بابه النحائر من الأنعام. وهذا ما يعنينه الذي كان عليه عباد الأصنام[6].

والمعنى الثاني للنذر، يسميه المحدثون نذر المجازاة وتسمية العامة "الوعدة". وقد غيرت الممارسة الشعبية مفهوم النذر، بحيث أصبح الناس ينذرون النذر لمن يعتقدون فيه من الأموات والأحياء والمزارات، الحيوانات والأطعمة، ويعتقدون أن نذرهم يقربهم من رضى المنذور، فإن حصل غرضهم، ازدادوا تعلقا بمن نذروا له، واشتدت خشيتهم منه[7]، كما يرون بأن للأماكن التي تنجز فيه النذور خصوصيات قلما تتوفر في غيرها بحيث أن لهذه المواقع خاصية دفع البلاء واستجلاب النعمة والاستشفاء من الأمراض. وقد يتقربون بالذبائح لبعض الأحجار إذ قيل لهم بأن عبدا صالحا قد استند إليها، ويقدمون لبعض الأضرحة الشموع والزيت والنقود ويعلقون الخرق على بعض الأشجار. وتبعا لهذا فإنهم يتفاءلون ببعض القبور بقولهم أن القبر الفلاني يقبل النذور أي يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض أو قدوم غائب أو سلامة مال أو غير ذلك من الأغراض.

وهم يعتقدون أن الأولياء الصالحين أحياء في قبورهم يتصرفون في هذا العالم ويقضون حاجات قاصديهم، حتى ليجد المرء من يتسول إلى صاحب القبر من أجل قضاء حاجته. وقد يلجأون إلى شد الرحال إلى هذا المكان وتشيد البناءات واتخاذ المزارات، ويرون أن روح الصالح هناك تستجيب للدعاء، إما لأنه دفن هنالك أو جلس به. ومن هذا التبرك الاستمدادي تقبيل الجدران والتمسح بالحطان وكل ما يضاف إلى ذلك المكان[8].

ويشتد الاعتقاد في الولي في أوقات الكوارث الطبيعية كالجفاف وغيره من أجل رفع البلاء وإغاثة الناس، لذلك تقدم القرابين، وهي تلك الذبائح من الأغنام أو الماعز التي تذبح قرب الضرائح، وتولم الوليمة، فتقدم الأطعمة إلى الوافدين إلى الوعدة. فإذا حدث ونزل المطر إثرها نسبوه إلى المذبوح له، وقوي اعتقادهم فيه وتعويلهم عليه، إذ لم يتم ذلك أصيبوا بنكسة وقالوا أن وليهم غضب عليهم لتقصيرهم في جانبه[9].

لا يتوافق الطقس البدعي المتمثل في الوعدة مع الحيثيات الدينية التي تقتضي أن يكون الذبح وتقديم الحيوان لوجه الله (كما هو الحال بالنسبة لطقس عيد الأضحى) بل أن الدين الرسمي يعتبر تقديم الذبائح للوسيط مهما تكن رتبته الدينية حراما وكفرا وشركا. ويعتبر لحم الضحية المذبوحة في حال وجوده محرما.

وهناك مؤشرات تتدخل لتجعل من الوعدة طقسا بدعيا[10] ومنها:

1 – تتجدد الاحتفالات على فترات منتظمة، وتتخذ مظاهر شعائر حقيقية تترأسها عائلات ميسورة، تكون المنظمة لهذه الطقوس. وتبدو في نظر الجميع حائزة على قدرة روحية تتعدى حدود العامة، وملتمسي هذه الطقوس الذين يجتمعون من كل الطبقات الاجتماعية، يقدمون

للعائلات المنظمة كامل الولاء والطاعة ومن هنا يظهر نوع من التراتبية وتوزيع المهام داخل هذه الجماعات.

2- يشكل سير أحداث الوعدة تجديدا للوثنية القديمة، ورغم ذكر اسم الله بصورة صدفوية، فإن التوجه يكون لغير الله.

3- تتجدد الوعدة في فترات منتظمة دون أن يؤدي إليها أي طلب موضوعي. فالناس يعرفون تاريخها الثابت ومن عادتهم أن يرجعوا إليه إيمانا أو تبعا لحاجة.

تجدر الإشارة إلى استبدال عبارة زردة بعبارة وعدة للدلالة على نفس الشيء. والزردة في العرف العام، طعام يتخذ من بهيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم ولها وقتان: أحدهما في فصل الخريف عند الاستعداد للحرث والآخر في فصل الربيع عند رجاء الغلة. والغرض منها التقرب من ذلك الصالح كي يغيثهم بالأمطار تسهيلا لحرث أو حفاظا للغلة[11]. وغالبا ما تضاف الزردة أو الوعدة إلى صاحب المزار فيقول الناس مثلا وعدة سيدي عبد القادر كما تتم عند القبر أو المقام ونادرا ما يقبلون مكانا آخر.

تأخذ الوعدة بالنسبة للقبيلة قيمة دينية لأن الناس يتصورون أنها إكراما لولي. كما أنها تؤكد إقامة حج طقسي مرة أو مرتين كل عام لولي وخلاله تقوم العائلات بزيارة الضريح والتبرك به، ويضمن الانتقال الوراثي لإحدى العائلات الحيازة على البركة التي تمكنها من السيطرة على المريدين والأتباع. وفي هذه الحال وعند القيام بالوليمة فإن التكاليف الاحتفالات تقع على عاتق الجميع.

وهذه الظاهرة لا تنفصل عن أي سلوك ديني حيث نجد أن هناك نوعا من التوافق بين الطقوس الدينية والبدعة في التقاليد والعادات الشعبية وهي لا تنتهك المعتقد الديني حسب مريديها وترى أي شيء طبيعي أكثر من عبادة الولي الذي جعله تدينه وسيطهم مع الله في التمثلات الشعبية.

وغالبا ما يرتكز هذا التجانس في الأرياف على الطلاب لأنهم مسئولون نعن قيادة التدين الشعبي ولأن مفهوم القداسة في نظرهم مرتبط بالتدين والمعرفة الدينية مما جعلهم يتغاضون عن الانحرافات الدينية لأنها تخدم مصالحهم. إن عبادة الأولياء وإقامة الولائم على الأضرحة التي يمنعها الدين الرسمي هي أساسا من اختلاف المرابطين أي تلك الهيئة الدينية المكلفة بالإشراف على الدين في الأرياف. إذ تقترح دينا يكلم القلب والخيال، وتمارس نفوذا كبيرا على حياة الريفيين بواسطة قوتها المادية والمعنوية[12] وتشجيع هذا التوافق شرط أساسي لاستمرار مركزهم ومصالحهم. وهذا لا يمنع الدين الرسمي من اعتبارهم منحرفين.

إن طقس الوعدة الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بتقديس الأولياء وتقديم القرابين لهم من أجل قضاء حاجات مختلفة لأن الناس يعتقدون أنهم وسطاء بينهم وبين الله. وأن الله يقبل دعاءهم لم يبرز مع عبادة الأولياء وإنما يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، إذ عرفه قدماء الجزائر في القرابين التي كانوا يقدمونها للآلهة سواء من أجل الحماية أو طلبا لتأمين الغذاء عن طريق توفير المياه لفائدة الزراعة. وقد ظهرت هذه الوثنية من جديد مع ظهور الأولياء في الجزائر، ولمعرفة ذلك فسنتطرق إلى دراسة وتتبع نشوء هذا الطقس عبر المراحل التاريخية المختلفة التي عاشها المجتمع الجزائري.

استمرار المعتقد الوثني:

إن دراسة التراث الشعبي الجزائري ولاسيما ما يتعلق بالمعتقدات والطقوس التي تصاحب الاحتفالات، تعكس مدى تمسك الناس ببقايا معتقدات وثنية يمارسونها وكأنها طقوس ذات علاقة

بالدين، إذ لا يتم التفريق بين الطقس الديني والطقس البدعي. وهذا ما سهل تعايش الطقسين في الذاكرة الشعبية فإحساس المجتمع بضرورة الدفاع عن كيانه أمام مختلف العوامل التغييرية يجعل أفراده يلجئون إلى الاحتماء بالتقاليد والتراث، وربما عمد في بحثه عن وسائل المقاومة إلى إعادة انبعاث التقاليد كما يظن أنها في عالم النسيان. والتقاليد والعادات الشعبية تكتسي قوة عظيمة للبقاء والاستمرار على الرغم من القرون التي مرت بها حيث أن العديد من الطقوس والمعتقدات لا زال يعايش التقاليد الحديثة. ومن هذه الطقوس طقس الوعدة الذي يرجعه البعض إلى عبادة الأولياء إذ ظهر حسبهم بظهور هذه الأخيرة غير أن الدراسة المتأنية تبين أن هذا الطقس له جذور تاريخية عميقة في حياة المجتمع فقد صاحب مختلف الأجيال منذ وجود فكرة العبادة لدى الإنسان الجزائري القديم.

ولقد شكل طقس الضحية التي تقدم قربانا للآلهة طقسا ملازما لاحتفالات ومظاهر التقرب إلى الآلهة سواء بطلب حمايتها أو لاتقاء شرها. وأصبح الإنسان تبعا لذلك يحس بالطمأنينة والهدوء حينما يفي بطلبات إلهه. وفي هذا المجال يقول باستيد: " إن الضحية التي تقدم قربانا تستخدم كموضوع تبادل بين المتضرع (الذي يلتمس) و المتضرع إليه (الألوهوية التي تتقبل الدعاء) ويشكل هذا التبادل تداخلا للقوى بين الإنسان والألوهية التي يناشدها. ويمكن إسهام التضحية في تحرير طاقة ضرورية للقوى الملتمسة ضمن مهمتها المتعلقة بتوكيد حياة المؤمنين بها، لأن دم الضحية القربانية هو شراب الآلهة المفضل، إنه الغذاء الذي يؤدي إلى تجديد قوى المقدس المنهكة الموضوعة في خدمة البشر والوسيلة التي تنعكس هذه القوى عليهم من جديد كي تشتد قدرتهم على الحياة والبقاء(13).

وليست وظيفة الضحية واضحة بهذا الشكل إلى في الأديان القديمة. فقد عرف قدماء الجزائر عبادة الشمس والقمر، وعبادة بعض الحيوانات كالثور والكبش والتيس. وكانوا يعظمون العيون والأشجار والجبال والأموات، ويشيدون لهم قبورا ضخمة. وقد بقيت ترسبات هذه المعتقدات في المجتمع الجزائري: فمن أثار عبادتهم للشمس أن الولد حينما تسقط سنه يرمي بها إلى الشمس ويقول لها: " أعطيتك سن فضة أعطني سن ذهب". ويعظمون بعض العيون ويتبركون بمياهها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين، ويجتنبون قطع الأشجار ويعلقون بها خيوط رجاء أن تقضي حاجاتهم (أشجار البطم)[14]. ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الأطعمة لبعض الكهوف وزيارتها وتطيب رائحتها بالبخور، فقد يرجعون ذلك إلى أحد الصالحين قد مر بهذا الكهف أو جلس عندهم.

وعلى الرغم من محافظة البربر على معتقداتهم الأولى إلا أنهم تأثروا بعبادة المحتلين وامتزجت بعبادتهم ومن ذلك الفينيقيين الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر. والشمس عندهم إله السماء والأرض يتوسلون لإرضائه بتقريب القرابين له. وقد تكون تلك القرابين أناسي وأكثر ما تكون من أبناء الملوك، وكانت لهم أعياد يحتفلون بها بآلهتهم ويقربون لها القرابين من البشر والغنم[15].

أما الرومان فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى وأسلافهم. وعبادة الموتى وهي العبادة الخاصة بالأسر، ويعتبرونهم آلهة خير ما نشطوا لعبادتهم، وقربوا لهم القرابين، وإن هم قصروا في ذلك انقلبوا آلهة شر[16].

عبادة الأسلاف:

في روما، كانت ديانة العائلة ترتبط بالموقد العائلي وهو رمز تعبير لشعور الإنسان العوي بأنه امتداد لأسلافه وسابقيه. ولاحترام هذا الامتداد كانت توقد نار دائمة في موقد داخل منزل

العائلة، وفق عقيدة تنص بأن استمرار نسل العائلة إنما يأتي بالحفاظ على جذوة تلك النار التي تخص الأسلاف الذين لهم رتبة القداسة لدى أحفادهم.

لقد كان رب الأسرة هو كاهنها وحاكمها ومن واجبه دون غيره أن يوالي تقديم الذبائح لروح والده الذي يكون قبره مع أسلافه وسط المسكن. وأقصى عقاب للميت كان عدم دفنه، لكون ذلك لا يتيح لأبنائه أن يقدموا له الذبائح باستمرار، فتبقى روحه بلا قبر يضمها، وتعذب الأحياء.

وحين اتسع المجتمع، تشكلت الفصائل وهي عبارة عن مجموعة من العائلات تتعبد لإله واحد تقدم له الأضحيات بحضور الجميع واشتراكهم، وتقام ولائم عامة يحضرها أفراد الفصيلة. وكانت مستهلكات هذه الولائم العامة تجمع من غلال الأرض يدفع كل رب أسرة جزءا منها لأخويه أي الفصيلة.

وعند تأسيس المدن الكبرى، كان يوجد لكل مدينة مذبح مشترك. وكان بقاء هناء المدينة يتم ببقاء المراسم على حقيقتها في هذه المعابد. بحيث أن أي خطأ يحدث يعرض الجميع لنقمة الإله الأعظم راعي المدينة. وللاحتياط من هذه النقمة كان يقام في روما عيدا كل أربع سنوات وتقدم فيه الأضحيات للتكفير عن الأخطاء، التي يمكن أن تكون ارتكبت أثناء القيام بتأدية الطقوس الدينية[17].

الوثنية عند العرب:

لقد كان العرب منذ القدم يقدسون الكعبة ويجلونها وينصبون حولها الأصنام. وكان الذي أدى بهم إلى عبادة الأوثان التي كانت في الأقوام قبلهم، أن لا يظعن في مكة ظاعن إلا حمل

معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حل وضعه وطاف به، كطوافه بالكعبة تيمنا به وصبابة بالحرم، ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا... فعبدوا الأوثان. وصاروا إلى ما كانت الأمم من قبلهم[18] وقد عبدت قريش الأصنام (هبل، اللات والعزى) وقد اقترن بعبادتهم تقديم القرابين حيث كانوا يقدمونها لآلهتهم، وكانوا يبالغون في تعظيم أصنامهم والبناء عليها والطواف حولها والتمسح بها، واتخاذ ما يذكر بها في منازلهم فلا يسافر مسافرهم حتى يكون آخر ما يصنع في منزله هو التمسح بصنمه. ولا يقدم قادمهم حتى يكون أو ما يصنع إذا دخل بيته التمسح به أيضا، ومن صور عبادتهم لها زيارتها والنذر لها وجعل نصيب لها في حروثهم وأنعامهم والذبح عندها ثم قسمة ما ذبح على الحاضرين واستشارتها فيما ينوون إحداثه.

أما النصب فهي حجارة كانت حول الكعبة وكان العرب في جاهليتهم يذبحون عندها. وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويجعلونه على النصب[19] كما كانت قريش تأتي إلى ذات أنواط وهي شجرة خضراء كل سنة فيعقلون بها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما.

تبدو ديانة البربر محملة ببقايا وثنية عديدة مؤلفة من طقوس سحرية دينية ورثوها عن أجدادهم البعيدين كطقس موكب العروسة والعريس على هيئة تماثيل تمثل الزفاف في محاولة لحمل الأرض على الاقتران بالمطر وإحداث الزواج الضروري بينهما. وكطقس اليد الممدودة لطرد الأرواح الشريرة وعين الحسود والعفاريت الخبيثة تطردها عن الأشخاص والأموال[20].

ومع تأثر البربر بديانات الأمم المختلفة فقد حافظوا على عقائدهم الأولى و لم يرفضوا منها إلا قليلا. ولا يعرف التاريخ دينا غير العقائد، وابتعد عن الوثنية، واعتمد على العقل مثل الدين الإسلامي ومع ذلك لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه[21] وهذا صحيح إلى درجة أن

التوحيد الإسلامي من بعد المسيحية لم يستطيع بعد قرون عديدة من السيادة والسيطرة أن يغير تغيرا شديدا في تصورات البربر الدينية. وقد تدعمت هذه الوثنية وبرزت من جديد من عالم النسيان وانبعثت من الأنقاض لتروض الإنسان وتسيطر عليه من خلال حاجته إلى الحماية ولا أدل على ذلك من وجود ضالتها في ظهور عبادة الأولياء التي عرفتها مختلف أقطار المغرب الإسلامي منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

عبادة الأولياء:

لقد ازدهرت الطرق ازدهارا عظيما منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، حيث ظهرت الطريقة الكبيرة التي تنتسب إلى أبي عبد الله الجازولي (869هـ/1465م) وقد تشكلت طرق كثيرة على منوال هذه الطريقة ومنها كثير من فروع الشاذلية ولعبت دورا أساسيا في الحياة الدينية للمغرب. واتخذت عبادة الأولياء أهمية كبيرة في بلاد المغرب الإسلامي. ولم ينج من تأثير الأولياء أي جزء من المغرب أو طبقة من طبقات المجتمع أو الشعب والذين يسمون في اللهجة العامية (المرابطون).

وقد انتشرت انتشارا عظيما لتشكيل إيديولوجية شعبية بواسطة رسمها للمعالم الأساسية للإسلام الغربي[22]. لقد استطاع الفكر الطرقي التغلغل في أوساط الجماهير الشعبية وتشبع بأفكارهم ومعتقداتهم ومثلهم، وأصبح شعبيا وحصل على الكثير من الأساطير والممارسات التي اكتسحت الفرك العربي الإسلامي. وقد ساعدت هذه الوضعية على الاعتقاد في الأولياء وفي كراماتهم فازدادت سلطتهم الروحية واتسع نفوذهم وكثر عددهم[23] ويتفق جميع الباحثين الذين اهتموا بموضوع عبادة الأولياء – بالأخص أ. دمنغهام، ج، بوسكيه – على أنها بقايا وثنية برزت من جديد عن طريق المرابطين[24] الذين تعتبرهم العامة واسطة بينهم وبين الله وبأنهم يتصرفون في

الكون ويعلمون الغيب. وقد أدى الإقبال عليهم إلى رفع مكانتهم وتوسيع نفوذهم مما جعلهم يدعون الولاية التي تحولت إليهم إلى وراثة يرث الابن أباه. ومن هنا كانت الفكرة القائلة: بأن البركة الإلهية تفيض على الولي ثم تنتقل إلى ذريته فيصبح جميعهم شيوخا يلتمس منهم الناس البركة كما تتسابق القبائل ليكون لكل منها وليها، يعزز شوكتها ويدعم مركزها ويصبغ عليها بركته مما ساهم في انتشار الأولياء(25).

وقد اختار كثير من الأولياء الريف مقر لهم ومجالا لنشاطهم لحاجة السكان للتعليم والتوجيه، يضاف إلى ذلك تفشي الأمية وانحطاط الثقافة. فالإنسان البسيط يجد حاجته للاقتراب من الله عن طريق الوسطاء كما يعتقده، وذلك لكونه يجهل كل شيء عن الدين الحقيقي ويطلب من الولي أن يلبي حاجته لأنه يتمتع بالبركة ويستطيع علاج الأمراض والتنبؤ بالمستقبل أو منح الخصوبة للمرأة العاقر. وبهذا أصبح الاعتقاد في البركة أساس تنظيم الطرق الدينية والزوايا التي تظهر ولاءها لسلطة الولي(26).

وقد دعت الصوفية إلى تقديس الأولياء ونسبت لهم كرامات خارقة للعادة، فأصبح الناس يتوجهون إليهم في ابتهالاتهم وتضرعاتهم، حتى ليعتقد المرء حقا بأن عبادة الآلهة القديمة عادت في نفس الأمكنة وبنفس العادات، البخور والنذور والولائم التي حلت محل القرابين مع اختلاف الظروف(27).

وفي المعتقدات العامة، فإن الولي حينما يموت تظل روحه حسب اعتقادهم تنتقل بكل حرية في كل مكان. ولقضاء حاجة فعلى الطالب أن يستنجد باسمه ليتم له ما أراد وهذا الفعل كثيرا ما يلجأ إليه الناس أثناء وقوع المصائب والكوارث فيستنجدون بالولي الصالح سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني: "يا مولاي عبد القادر يا سلاك الواحلين" وقد أضحت هذه العادات راسخة في

نفوس الأجيال، تتوارث جيلا عن جيل وشكلت جزءا من التراث الشعبي يشترك فيه عامة الناس يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية. ويؤثر فيهم فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الوسائل، لأنه يجسد ماضيهم وماضي أجدادهم. وظاهرة الوعدة أو الزردة من هذه العادات التي ارتبطت بالزوايا كمظهر من مظاهرها. وهي في الواقع ظاهرة عامة عرفها المجتمع على الرغم من اختلاف تسميته بين مختلف المناطق. وقد صاحبت الزوايا حيث كان أفراد القبيلة يقدمون عمل يوم كسخرة سواء في فصل الصيف لحصاد زرع الزاوية أو في فصل الخريف لحرث وزرع البذور، يفدون على الزاوية في هاتين الفترتين للمساهمة في خدمة الزاوية وكلهم أمل في أن هذا العمل إنما يقومون به إرضاء للشيخ، وغالبا ما يصاحب هذه الأشغال أو في نهايتها إقامة احتفال بذبح الذبائح وإطعام المشاركين في العمل قصد الحصول على البركة. وقد تقام الاحتفالات من أجل الاستسقاء وتكون غالبا بالقرب من الأضرحة. وقد أفادنا أحد كبار السن (الشيخ معداوي من بلدية صبرة) الذي حضر هذه الأعمال أن أكثر من 75 رجلا كان يشارك في حصاد غلة الزاوية وبالتحديد زاوية سيدي بن لأعمر بنواحي ندرومة. وقد كانوا يقصدونها راكبين وراجلين (في شكل ركب يرأسهم مقدم الزاوية) وكلهم أمل في إرضاء شيخ الزاوية مظهرين فضل المساهمة والمشاركة في خدمة الزاوية (عن طريق التويزة) وعاقبة من يترفع عن خدمتها أو يرفض تقديم خدمة للشيخ.

وقد انتشرت هذه الظاهرة إلى القرى والمدن حيث عمل الناس على إحيائها في مواسم معينة واستمروا في إقامتها اعتقادا منهم أن عدم إقامتها يؤدي إلى تأخير نزول الغيث أو زوال البركة في فصل الصيف. وبهذا نرى بأن الجانب الاقتصادي يلعب دورا أساسيا في استمرار وديمومة هذه الظاهرة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع الاجتماعي للناس الذي يرتكز بدوره على الفلاحة كمورد أساسي للفئات العريضة من السكان، ويخصص الفلاحون جزءا من مدخولهم أو ريع أرضهم للمساهمة في إقامة الوعدة. وغالبا ما تقام بعد انتهاء فصل الصيف ليتسنى للجميع المشاركة فيها.

ومن هنا فبالإضافة إلى الجانب الديني أو المعتقدات الشعبية التي تتحكم في هذه الاحتفالات فهناك الجانب الاقتصادي المتمثل في الزراعة والاستسقاء أو طلب البركة.

وقد أدرك المستعمر أهمية إقامة الوعدات، فأوكل إلى القياد وشيوخ القبائل ورؤساء المداشر ومقدمي الطرق بتنظيم الولائم على شرف شيوخ الزوايا وشجع إقامة الوعدات على الأضرحة والقباب. وتشكلت بفعل هذه السياسة ممارسات ركزت على احتفال كل قبيلة بصاحب ضريح خاص بها، تحتفل به سنويا ولا تحيد عنه حتى أصبح يستعاض عن ذكر القبيلة بذكر الولي الذي تولم له الوليمة أمام القبائل الأخرى. وفي هذا الصدد يقول فونيالو: " يسود في هذا النوع من الاحتفالات والتفاخر والغيرة والحسد فكل قبيلة تعمل كل ما في وسعها من أجل تجاوز جارتها وهي بهذا المعنى تجسد الصراع الأصم لأنانية العائلية[28]. وقد تفطنت الإدارة الاستعمارية إلى الدور الكبير الذي تلعبه الاحتفالات في حياة المجتمع الجزائري. فعمدت تكبيل شيوخ الطرق بمختلف الوسائل العسكرية والقانونية. وأصبحت بذلك تسمح بإقامتها لبعض الزوايا الحليفة بسياستها وتمنع على الأفراد كلّ مورد من شأنه أن يمكنها من ممارسة نشاطها بحجة مناهضيها لسياستها الاستعمارية وفي هذا الصدد يقول شارل وربر أوجرون: " لقد كانت الإدارة الفرنسية تتدخل في كل تظاهرة خارجية للعبادة، فقد كانت الرخص ضرورية لكل احتفال ذي طابع ديني كالزيارة خصيصا تحت طابع جمع الأموال المطلوبة من قبل الأولياء والطرق[29].

علاقة القبيلة بالولي:

يوجد نوع من التحالف أو العقد بين القبيلة والولي، بموجبه يتكلف بمصالح الجماعة، ويحافظ على ازدهارها وسعادتها وبالمقابل فإن على أفراد القبيلة احترام سيادته الروحية وتجديد الوفاء له كل سنة بتقديم الزيارات والأضحيات التي تؤكل لحومها في وجبة جماعية.

إن التحالف بين الولي وخدامه يتجسد من خلال الاحتفالات التقليدية التي تقع خلال الاحتفال بالولي أو حينما تصاب القبيلة بكارثة عامة وتصبح كلمة " وعدة " أو الوفاء بالنذر ذات معنى. وفي هذا اليوم يقوم أفراد القبيلة بواجباتهم الجماعية حيال الولي، فيستغلون من الخطايا ويشكرونه على مننه السابقة ويطلبون حمايته في المستقبل ويجددون بالمناسبة تحالفهم الأخلاقي معه[30].

من واجبات يوم الاحتفال بالولي، اجتماع عام لممثلي العائلات الذي يحضره الأطفال والنساء في مكان قريب من زاوية الولي، تقدم وجبة مشتركة يحضرها الزوار الأجانب كذلك. يشكل ارتداء الملابس الجديدة والنظيفة والقيام بالألعاب المختلفة (لعبة البارود والرقص...) طقوسا أو مظاهر للفرح تصاحب هذه الاحتفالات، وتنظم بعد ذلك زيارة خاصة إلى الزاوية أو الضريح يحضروها وفود مختلف الجماعات الذين يتمنون قضاء بعض الحاجات. إن الذبائح كل الأغذية المستهلكة بمناسبة الوجبة المشتركة تقدم من طرف العائلات التي تقطن الإقليم الذي يشكل مجال الولي. وتعتبر هذه العائلات نفسها كخدامه وغالبا كمنحدرين من نسبه.

وبعد الانتهاء من أكل لحوم الذبائح يتحلق الناس حول المقام ليطلبوا من الولي الاستمرار في تقديمه لمساهماته الضرورية ومساعداته للرجال والخدام[31].

إن الحج الجماعي والوجبة المشتركة تقعان حينما تكون جماهير الأتباع مهددة بكارثة (كالجفاف مثلا) والتي يستطيع الولي بفضل صلاحه وقوته أن يبعدها عن طريق التوجه بالدعاء إلى الله.

يتكون الحج من:

أ. الاجتماع في اليوم المحدد بالقرب من مقام الولي لمندوبي العائلات الذين يتمنون إلى إقليمه ونفوذه وممثلي القبائل القريبة.

2. الزيارة إلى الزاوية أو المقام من طرق قسم من الوافدين سواء بعد وصولهم أو مغادرتهم المكان ليعبروا للشيخ عما يريدونه منه، ولتقديم الزيارات من طرف أحد أو الممثلين الأكفاء وغالبا مقدمي الطرق وباسم الجميع.
3. حفلات متنوعة، سباق الخيل، رقصات خاصة عادية أو دينية غناء وألعاب.

تشكل هذه الوجبة المشتركة قسما من طقوس هذا النوع من الحج، يقدم الغذاء كليا من طرف العائلات الرئيسية للخدام وإلى الغرباء الذين يأتون إلى الوعدة[32] ويبدو أن استمرار هذا الطقس والمحافظة عليه يأتي من الإرادة الجماعية لإعادة تشكيل على الأقل في الخيال الفرق أو القبائل حول ولي رمز تنتمي إليه القبيلة أو العشيرة. فقد عرفت عبادة الأولياء وتقديم القرابين هنا في إطار هذه الاحتفالات نشاطا جديدا حيث عملت الوعدات على إحياء قرابة جماعية وهمية عن طريق تقديم الولاء للمرابط. وقد استقطبت التجمعات السنوية والولاء إلى الجد الحقيقي أو الوهمي آلاف الأشخاص الذين يأتون من مناطق مختلفة. فكل مشارك يستقبل هذه التجمعات كفرصة وحيدة للالتقاء بأحبائه ويسلي نفسه بفكرة انتمائه إلى نسب كان قديما قويا وكثير العدد والذي يتناقض مع وضعيته الحالية كفلاح سجين لتقلبات فلاحة الاكتفاء الذاتي. إن تضاعف الأولياء وإقامة الاحتفالات تشهد على الرغبة الجماعية لإعادة البعث للهياكل الاجتماعية القديمة في الضمائر (الوعي)[33].

إن المعايير الاجتماعية القديمة قد سمحت قديما بإيجاد توازن اجتماعي، فعدد كبير من الفلاحين يعتقدون أن كل العراقيل تأتي من كون عدم احترام هذه المعايير، فكل مجتمع في وهم وفي مثالية الماضي التي يعتقدون أنها لا زالت قائمة.

يظهر من خلال هذا الطرح، أن للوعدة دور كبير في حياة المجتمع ولاسيما الريفي حيث تتمثل وظائفها في تدعيم التماسك الاجتماعي لأفراد القبيلة والحفاظ على التقاليد والعادات الشعبية ويتعدى دورها المحافظة على الأمور الدينية إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهذا ما سنستشفه من خلال دراسة مكانة ووظيفة الوعدة في المجتمع.

مكانة ووظيفة الوعدة في المجتمع:

لقد ورث المجتمع الجزائري هذا الطقس من القدماء الذين سكنوا البلاد. فقد كان البربر في فجر التاريخ مستقرين ورحلا، يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان. وكانت بلادهم ذات مناخ قاس مفرط يتميز بفصل طويل حار جاف في الصيف، مما أولي أهمية بالغة للينابيع الدائمة الجريان وللأرواح التي تولدها أو تسكنها. والمطر الذي يجعل المراعي تخضر، ويضمن محصول الحبوب. وقد ولد هذا طقوسا سحرية ودينية، بدون أدائها لا يمكن للمياه الثمينة أن تنفجر وتحدث[34]. وينسحب الأمر هنا كذلك على إقامة الوعدة عند ضريح أحد الأولياء وتقديم القرابين والدعاء من أجل الاستسقاء الذي يعتقد التابعون والخدام أنه بدونه لا يمكن أن ينزل الغيث ويتم المحصول.

لقد أشار مالينويسكي إلى أن تنفيذ الطقس يغير وضع المؤمن وبممارسة طقوس الاستسقاء التي يفترض فيها أن تجلب المطر، فإن المؤمنين لا يسببون هطوله، ولكنهم بتجمعهم لإتمام الاحتفال المطلوب يعبئون الطاقات التي تسمح لهم بتحمل أفضل لتجربة الجفاف والفقر الذي يرافقه.

تحوي الوعدة كما ذكرنا عدة وظائف يمكن الإشارة إليها فيما يلي:

وظائف الوعدة:

أ- الوظيفة الاقتصادية:

يحتل الجانب الاقتصادي دورا أساسيا في احتفالات الوحدة حيث أنه بالتوازي مع إقامة الاحتفالات، تقام عدة نشاطات اقتصادية تستقطب اهتمام الوافدين عليها وتشكل بذلك سوقا مفتوحة لمختلف المنتوجات الريفية إضافة إلى المنتوجات المصنعة التي يعرضها تجار محترفون يقوم باقتنائها الفلاحون وأفراد القبائل وبذلك تؤدي الوعدة وظيفة اقتصادية هامة للمجتمع الريفي.

ب- التكافل الاجتماعي:

تحاول القبائل تجسيد هذه الوظيفة من خلال إبراز الكرم وحسن الضيافة تجاه الوافدين عليها وتقديم الأطعمة والصدقات لليتامى والعطف على المساكين وتقديم يد العون للمحتاجين والغرباء وغيرهم. ويسعى أشراف القبيلة إلى إصلاح ذات البين بين المتخاصمين وفك الخلافات في النزعات العقارية وتوزيع مياه الري والفصل في قضايا الطلاق والحضانة وتوزيع المواريث والزواج.

وقد تكون فرصة للتفكير في تنظيم حملات التويزة لمساعدة بعض المساكين على بناء مساكنهم أو حفر قنوات الري أو غيرها من الأشغال التي تعود بالفائدة على القبيلة ككل.

ونظرا للأهمية التي يوليها الناس إلى هذه الوظيفة، فإنها تكاد تغطي كل الممارسات في هذه الاحتفالات إن لم نقل كلها والتي تعد في نظر العامة من الحتميات الملازمة تلازما وظيفيا لا يكاد ينفصم عنها.

ج- الوظيفة الثقافية:

تمثل الوعدة ظاهرة ثقافية في حد ذاتها، فهي تحوي العديد من العادات والتقاليد والفنون التي طبعت سلوك الأفراد منذ زمن بعيد. وهي تعيد إنتاج هذه العادات بما توفره من إطار للمحافظة والصيانة لما تركته الأجيال السابقة.

ويدرك من يفد على الوعدة ذلك التواصل والحوار المستمد بين الماضي والحاضر من خلال التراث الشعبي ومن خلال ما أدخل عليه من تجديد، غير أن ذلك لم ينزع عليها الطابع التقليدي لمختلف الممارسات التي تقام بها. وبذلك يمكن الربط بين الماضي والحاضر ليظل الماضي قائما في قلب الحاضر يمنع كل إمكانية الانسلاخ عن هذه التقاليد العريقة. ويمكن استشفاف هذه الوظيفة من خلال الألعاب والفنون الملازمة لها كألعاب الفروسية والألعاب الفلكلورية المختلفة والمداح وقصصه الشعبية وغيرها من الفنون الشعبية التي تزخر بها الوعدة.

د- الوظيفة الدينية:

يمكن الإطلاع على هذه الوظيفة من خلال التقاليد التي حافظت عليها والتي تبدو أقرب إلى الدين الإسلامي، ومنها مساعدة الفقراء وجمع الزكاة لبناء المساجد والزوايا مع العمل على توفير الشروط الضرورية لتعليم صبيان القبيلة القرآن الكريم (ما يسمى عند العامة المشارطة) ومناقشة مشاكل المجتمع المصغر والفصل في الأحوال الشخصية حسب الشريعة الإسلامية. وهي أمور تضطلع بها الجماعة أثناء انعقاد احتفالات الوعدة نظرا لما يتوفر من ظروف مساعدة: كوجود كبار القبيلة وشيخ الزاوية وغيرهم من أصحاب الجاه الذين يستطيعون حل المشاكل المستعصية. وتقام حلقات الذكر والحضرات لمختلف الطرق المشاركة في الاحتفالات.

يخصص جزء من الأموال المجموعة لبناء الزوايا والمساجد ودفع نفقات الأئمة القائمين عليها والمكلفين بتعليم القرآن الكريم وتحديد شروط التدريس مع الإمام لتدريس الصبيان. وتتوج هذه الوظيفة بالهدف الأساسي الذي أقيمت من أجله الوعدة وهو الاستسقاء وزيادة البركة والاحتفال بالولي الصالح. وهو ما يستشف من خلال إقامة الفاتحة حيث يقوم بالدعاء الشيخ أو المقدم أو إمام القبيلة داعيا الله عز وجل أن يجعل السنة أكثر خيرا وبركة طالبا منه نزول الغيث ببركة الولي الصالح.

من خلال ما سبق نلخص إلى القول أن طقس الوعدة يعتبر من مظاهر الوثنية الذي برز من جديد مع عبادة الأولياء التي ينكرها الدين ويدعو إلى محاربتها باعتبار الأضحيات التي تقدم لا تقدم لله وإنما للولي الذي يصبح وسيطا في نظر المضحي وفي هذا الصدد يقول باستيد: " يلتمس الناس مساعدة هؤلاء الأولياء وأنهم لا يقسمون إلا بهم، ولسوف يؤدي هذا الإيمان بمقدراتهم، بسلطتهم إلى استخدامهم كوسطاء حيثما يتوجه الناس نحو الله، كما لو أن احتمالات استجابة الرغبة الملتمسة من الله، باسم الأولياء هي أكبر منها باسم الشخص الذي يلتمسها[35].

ولكي لا يبقى مجهودنا محصورا في المجال النظري، فقد أجرينا دراسة ميدانية وحاولنا التعرف على مدى صحة أو خطأ الفرضية التالية: يبرز الطابع الوثني للوعدة من خلال ممارسة طقوسها.

وأرشدتنا الدراسة إلى اختيار عينة عرضية تتألف من 120 مشاركا وأعددنا استمارة لذلك توزعت أسئلتها على مؤشرات ثلاث هي:

1- المؤشر الأول: الاعتقاد في الولي من خلال الطقوس.
2- التنظيم السنوي للوعدة تجديد لها.
3- استمرارية الوعدة وديمومتها.

إضافة إلى هذه الأداة استخدمنا الملاحظة البسيطة، والمشاركة وقد مكنتنا هذه التقنيات في جمع المعطيات المطلوبة.

بعد دراسة مختلف المعطيات المتضمنة في الجداول الإحصائية وتحديد العلاقة بين متغيرات الفرضية تمت الإجابة على الإشكالية المطروحة. وهي أن الممارسة الطقوسية في الاحتفالات الوعدة تحمل في طياتها بقايا وثنية تعود في أصلها إلى الحضارات القديمة التي امتزجت مع معتقدات السكان المحليين.

وقد صمدت طوال قرون عديدة ولا زالت رغم محاربة الديانة التوحيدية لها. ويتحمل التدين الشعبي القسط الأوفر في ديمومة واستمرار هذه المعتقدات على اعتبار أن كثير من الناس لا يفرقون بين الطقوس الدينية وشبه الدينية. مما يجعلهم يعتقدون بتطابق هذه الطقوس وانتمائها إلى الدين الإسلامي ولاسيما إذا اقترن الأمر بمن تتوفر فيهم الكرامات كالأولياء الصالحين الذين يجب احترامهم وتوقيرهم أحياءا وأمواتا وهو ما يأمر به الدين الإسلامي كما يعتقدون. وهذا يعد من الأسباب الأساسية التي تفسر ديمومة واستمرار البقايا الوثنية في طقوس الوعدة.

وخلاصة القول فقد ظهرت الوعدة كسلاح ذو حدين:

فمن جهة ونتيجة لتفشي الأمية، ساعدت على زرع الفتور والخنوع وانصياع الكثير لسياسة الاحتلال التي كانت تعتبر قضاء أو قدر لا يمكن الخلاص منه إلا بالدعاء ودعمت التفكير القبلي الضيق وأعاقت وعي تكوين وعي وطني لمقاومي الاستعمار ومن جهة أخرى فقد أدت وظائف أساسية في مختلف مجالات الحياة وأهمها المحافظة على العادات والتقاليد العريقة التي تمسك بها السكان وميزهم عن ثقافة المحتل ومكنتهم من التيقن أنهم ينتسبون إلى ثقافة مغايرة ومتميزة.

إن هذا الطقس البدعي قد ساهم مساهمة فعالة في توطيد أركان الدين الرسمي على الرغم من أن هذا الأخير يعتبر انحرافا على تعاليمه. فقد ساع على جمع أموال الزكاة وصرفها في المجالات التي تخدم الدين كبناء الزوايا لتخريج العلماء الفقهاء وتشييد المساجد وتعليم القرآن الكريم واللغة للأطفال وتلاوة القرآن الكريم وغيرها من الأمور التي ساهمت بصفة مباشرة في تحصين الشخصية الوطنية وفي المحافظة على الهوية الوطنية. وبذلك أدت دورا أساسيا في حماية وصيانة المقومات الإسلامية.

الهـــــوامش

[1]) طوالبي نور الدين. **الدين والطقوس والتغيرات**. (ترجمة وجيه البعيني) بيروت: منشورات عويدات، 1988، ص 144.
[2]) نفس المرجع، ص 123.
[3]) محمد عبد القادر، أبو فارس، " **الإيمان والنذور** "، باتنة: دار الشهاب، 1991، ص 132.
[4]) نفس المرجع، ص 137.
[5]) مبارك، بن محمد الميلي. **رسالة الشرك ومظاهره**. الطبعة الثالثة، قسنطينة، دار البعث للطباعة والنشر 1982، ص 250.
[6]) نفس المرجع، ص 251
[7]) نفس المرجع، ص 251
[8]) نفس المرجع، ص 251
[9]) نفس المرجع، ص 251
[10]) نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 124.
[11]) مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص 238.
[12]) Pierre Bourdieu, "SOCIOLOGIE DE L'ALGERIE", Puf, 1958 P 103
[13]) نور الدين طوالبي، نفس المرجع، ص 39.
[14]) مبارك، بن محمد الميلي. **تاريخ الجزائر القديم والحديث**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص 75.
[15]) نفس المرجع، ص 197.
[16]) نفس المرجع، ص 197.
[17]) يوسف الخوراني: " **الإنسان والحضارة مدخل ودراسة** "، الطبعة الثانية بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1973، ص 49.
[18]) مبارك، بن محمد الميلي. **رسالة الشرك ومظاهره**، مرجع سابق، ص 89
[19]) نفس المرجع، ص 234.
[20]) ألفرد بل: " **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم** " ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1981، ص 66.
[21]) مبارك، بن محمد الميلي. **تاريخ الجزائر القديم والحديث**، مرجع سابق، ص 123.
[22]) ATTALAH, DHINA, "LES ETATS DE L'OCCICDENT MUSULMAN AU XIII, XIV ET XV SIECLES " Alger: ENAL.P 303
[23]) فيلالي مختار بن الطاهر، " **نشأة المرابطين والطرق الصوفية، وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني** "، الطبعة الأولى، باتنة: دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، 1976، ص 24.
[24]) نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 141.
[25]) فيلالي مختار بن الطاهر، مرجع سابق، ص 24.
[26]) Pierre Bourdieu, OPCIT P 102
[27]) أنظر كتاب نشأة المرابطين، مرجع سبق ذكره.

(28 GOGNALOUS L. "FETES PRINCIPALES D'OURGLA ", Revue Africaine N° 53 Année 1909 – ALGER OPU. 1986. P 89.

(29 LA CHARLES-ROBERT, AGERON " LES ALGERIENS MUSULMANS ET FRANCE (1871-1919)" Tome II PUF P 304

(30 BEL ALFRED : " L'ISLAM MYSTIQUE " Revue Africaine N° 69 ANNEE 1928. Alger : PU 1986 P 91

(31 I B I D P 92

(32 IDEM P 92

(33 ADDI, LAHOUARI " De l'Algérie précoloniale à l'Algérie colonial, Economie et Société ", Alger : ENAL, 1985P 101

(34 ألفرد بل، مرجع سابق، ص 56.

(35 نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 143